

القرآن والمدد النهضوي

الأستاذ صالح دبوبة

الجماهيرية الليبية

بسم الله الرحمن الرحيم، لعل من أكبر الإشكاليات المفتعلة التي تواجهنا ادعاء التصادم بين الدين والحضارة وبين الوحي والعلم، ومن دعاوى ذلك التصادم أن العلم والحضارة في تطور. والدين في ثبات، وأنهما تحرر وهو انقياد، وهما ثورة من أجل المستقبل والدين نكوص في الماضي، فكيف نستطيع أن نعتقد ونقنع غيرنا بأن الإسلام يواكب العصر ؟ وهل يمكن أن يكون كتاب الإسلام ومعجزاته مصدراً لاستمداد طاقة التقدم ودوافع النهوض ؟ وهل يكون هداية إلى الازدهار كما هو هداية إلى الإيمان؟

لعلنا بالنظر المتأمل في الخطاب القرآني منطقاً ومفهوماً نقف على إجابات عن هذه الأسئلة المتولد بعضها من بعض، ومن مقتضيات المنهج السوي أن نحدد بعض المفاهيم والمصطلحات الموظفة في هذا البحث .

فالعلم في مفهومه القرآني مراد به :- ما يدركه الإنسان بالنظر في السماء والأرض، وما يستمدّه من المغيبات بطريق الوحي، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف 185]، وهو يشمل العلوم الكونية والإنسانية والشرعية على السواء، والحضارة: القيم الروحية والمظاهر المادية والعلمية¹ المتألفة في توازن وانسجام يقول مالك بن نبي: "الحضارة

1- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ج. 4، المركز الثقافي، الدار البيضاء، 1996، ص. 185.

مجموعة من العلاقات بين المجال الحيوي (البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها"¹ ، ويُعنى بالنهضة: مواجهة التخلف والجهل والظلم بالتححرر والتعلم والبناء.

والثقافة: "هي كل ما يحدد خصائص حضارة ويعطيها سماتها الخاصة، ويحدد قطبيها"² الفكر هو المعالم العقلية والعلمية المشكلة للطاقة الروحية في هيكل الحضارة، وهو أخص من الثقافة، والتراث: هو ما تُقل إلينا من أعراف ثقافية قديمة لا ترتبط بحاضر ولذلك لا يصح أن يُطلق على مصادر الفكر الإسلامي يقول عبد الله العروي: "إن مفهوم التراث يطمس التعاقب الزمني والتمايز الاجتماعي في حين أن مفهوم السنة يكشف عند التدقيق عن تلك المتغيرات التاريخية والاجتماعية"³ والثورة تعني في الاستعمال العلمي: الانطلاقة الواثبة نحو النهضة، والإصلاح يُراد به التدرج في التخلص من العوائق والتعلق بأسباب النهوض. ويمكن تلخيص حركة القرآن المتجددة في دفع معتنقيه إلى النهوض، وحجزهم عن النكوص في المجالات الآتية:

أ- المدد الروحي:

مع أن الإيمان ظاهرة روحية محضة في حقيقته، فإن له آثاراً خارجية تنسجم في تفكير المؤمن وسلوكه، وتكيفه مع الحياة الاجتماعية سلباً وإيجاباً، أخذاً وعطاء، تأثيراً وتأثراً، وكلما كان الإيمان قاراً في النفس ملازماً لها كان المؤمن

1- شروط النهضة /ترجمة عمر كامل وعبد الصبور شاهين /القاهرة.ن. دار الفكر، ط3، 1969، ص.

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوبة

قوياً مؤثراً متفاعلاً مع محيطه الخارجي، بحيث يولد في نفس صاحبه طمأنينة وسكينة تجعله غير متردد في إنجاز وظيفته الحيوية وإبلاغ رسالته الإصلاحية، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد 28] ولكنها الطمأنينة التي لا تزيد المؤمن إلا انطلاقاً، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت 59]، وهذا التشكل الإيمانى الروحي، يصبح المجتمع ناهضاً ليقظة نفوس أفرادهِ وقوة طاقاتهم الروحية التي تتوق إلى التفاعل مع الحياة والإبقاء على منهج الحق والبناء، وثائرة على الباطل وعواقب التخلف، فالقرآن يفجر بالإيمان إرادة التغير التي هي أول دوائر النهوض، ومن مظاهرها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة 71]، وقال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران 110]، ويقرر القرآن أنه لا تحول للنفس من الفساد إلى الصلاح ومن الشر إلى الخير إلا بإرادة الإنسان هذا في الدورة الإيجابية، وكذلك الأمر في الدورة السلبية من الصلاح إلى الفساد، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد 11]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيِّنَاتٌ لِّلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ حَقٍّ مِّنْهُ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنفال 53] ولما كان الإيمان من أعظم الوسائل والذرائع التي تحت على الخير وتحجز عن الشر كان دافعاً في الحياة الدنيوية إلى السعادة في التوافق مع الحاجات الذاتية والعناصر الحضارية، كما أنه مصدر السعادة للحياة

الأخروية، فيحفظ التوازن بين حق الفرد في الاستمداد، وواجبه في الإمداد،

ومن مقومات ذلك التوازن الحضاري المفقود في المجتمعات غير المتدينة هو الإيمان

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوبة

بتلك الحياة الأخروية الذي يشعروا بأنه لن يهضم لنا حق،
فيضاعف من عطائنا، ولا نغالي في تزودنا، يقول تعالى: ﴿ومن يعمل من
الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ [طه 112] والإيمان هو الذي
حجز سحرة فرعون عن الفساد، وحولهم من مضللين بالباطل، إلى مجاهرين بالحق،
قال تعالى في تصوير موقفهم الجديد بعد إيمانهم النائر على كفر فرعون وظلمه:
﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما
أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا
خطايانا وما أكرهتها عليه من السحر والله خير وأبقى﴾ [طه 72، 73، 74] وقد
أوعد الله أهل الطغيان من الأفراد والأمم أن يهلك مساكنهم ومكاسبهم وحضاراتهم
إن لم يلتزموا بالإيمان لأنه الضابط الروحي الذي يدفع إرادة الإنسان إلى الخير، ويمنعها
من الشر، فقد قص علينا القرآن نماذج من فساد مكتسبات بسبب كفر أصحابها،
قال تعالى في صاحب الجنتين: ﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما
أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي
أحداً﴾ [الكهف 42]، وقال في قارون وثروته: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض، فما
كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين، وأصبح الذين تمنوا
مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لو لا أن
من الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ [القصص 82]

وكان تعطيل العامل الروحي وترك تفصيل الإيمان سبباً في إهتار حضارة عاد
التي بلغت من المادية مبلغاً عظيماً بالعمارة، وقوة الجيوش، وكثرة العدد، وتنوع
الخيرات، قال تعالى: ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا
أمر كل جبار عنيد، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة إلا إن عاد كفروا ربهم ألا

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوبة

بعداً لِعَادِ قَوْمِ هُودَ ﴿ ٦٠ ﴾، وكذلك شَأْنُ حضارة ثمود، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدُ لَثَمُودَ﴾ [هود 68]، وفي حضارة سبأ عيرة يشهدها كل ذي عقل رشيد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سَدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ 15، 16، 17]

وقص علينا القرآن مصير الحضارة التي يتمسك أهلها بالإيمان وأنهم لا ينتكسون ماداموا مؤمنين قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس 98]، وبين القرآن أن ذلك سنة اجتماعية في خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف 96]

فالقوة الروحية في القرآن ليست قوة سلبية تجذب صاحبها إلى العزلة وطرح الدنيا ولكنها قوة مزدوجة من السلب والإيجاب تبعده عن الشر وتدفعه إلى الخير، فهي هادئة للفساد، بانية للبر، ليست كروحانية الإنجيل الذي يقول: (إن أردت أن تكون كاملاً فأذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كثر في السماء وتعال اتبعني)¹ أو الذي يقول: (لا تقدرون أن تخدموا الله والمال)²، ذلك لأن الإنجيل يعالج حقارة مادية موقوتة الزمن ومحددة الإقليم والقرآن يبعث الإسلام الذي يسع العام وزمنه، والتاريخ وحركته، إنه النداء الذي يقول: ﴿وابتغ

1- شروط النهضة. ص. 103

2- مقدمة ابن خلدون، دار العودة، د. ت. ص. 124

فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيحتك من الدنيا ﴿[القصص 77]﴾
وقال: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ [المائدة 87]،
والفائل في صاحب الدعوة: ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل
يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث
ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف 157].

وهناك علاقة عكسية طردية بين القوانين الروحية والغريزية في الإنسان،
حيث تساهم الأولى في بناء النهضة وتعمل الأخرى فعلها في الهدم الحضاري، يقول
مالك ابن نبي: "ومن الطبيعي أن الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة، وإنما هي تنطلق بقدر
ما تضعف سلطة الروح" (1)، ومن أعظم ثمرات الروح الإيمانية على الصعيد الجماعي
قوة التماسك الاجتماعي في حركة الأمة الحضارية حيث الألفة والتعاون قال تعالى:
﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ [المائدة 2]، يقول
ابن خلدون في الكشف عن علّة تلك الألفة في ضوء قوله تعالى: ﴿لو أنفقت
ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم﴾
[الأنفال 63]، "وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا
حصل التنافس ونشأ الخلاف وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت
على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافس وكلّ الخلاف وحسن التعاون والتعااض
واتسع نطاق الكلة لذلك" (2).

والعامل الروحي له أثره كذلك في الوقاية من مصادمة التغيير المفاجئ الذي
قد يطرأ على أمة من الأمم حيث ينتقل أفرادها من مناخ حضاري إلى آخر، بسبب
التقدم السريع أو الحرب مع الأقوى أو تفجير ثروات جديدة، فالتوازن الروحي هو
الذي يمد الأمة بقدرة على تكيف أفرادها مع التغيرات المفاجئة سلبية أم إيجابية، يقول

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوكة

تعالى في تطوير هذا الضابط الروحي في أوصاف المؤمنين: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ [الفرقان 69] وقال: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم إيماناً﴾ [آل عمران] وقال: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ [التوبة 51]، وقال: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [الحج 41] .

ب_ المدد العلمي:

لا يعني بالعلم في المفهوم الإسلامي حصره في نوع أو نشاط بشري بما يعبر عنه حديثاً بأنه: "نشاط ذهني منظم يهدف إلى الوصول إلى نظريات مدلل عليها وقادرة على تعليل ما يلاحظه البشر من ظواهر"¹ بل العلم في القرآن يشمل المجال المشاهد والغيبى، والمصدر الإلهي والإنساني، وهو يقصد إلى إمداد العقل الإنساني بحقائق منظورة أو مستترة وحفز العقل إلى التحليل والنظر إلى ما يشاهده من ظواهر أو يتلقى من تعاليم، وهذا الشمول أكثر ملائمة لقطبي الحضارة، الروح والمادة، فالعلم في الإسلام ليس مشخصاً في تحريك عجلة الحضارة إلى الأمام، بل يشمل صيانتها وصيانة محركها الإنسان من الانحراف عن المسار، والعلم في الإسلام من جهة أخرى محصور بالمنهج والمقصد، فيلزم فيه أن يكون محصناً بمنهج الحق الخالي من الهوى والوهم والأعراف الفاسدة، مقصوداً به إلى الخير والنفع، لذلك فإن القرآن يعاقب من يوظف العلم في الفساد أشد عقاب، قال تعالى: ﴿وأتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا أنسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ [الأعراف 175، 176]، وفي الوجه الآخر أكرم الله من وظف العلم في البر والإصلاح

.. 1- نجيب الحصادي ، فحج المنهج، مصراته، الدار الجماهيرية، ط 1، ص 146.

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوبة

والنهوض بالامة، قال تعالى في شأن العبد الصالح الذي علم موسى عليه السلام ومن ورائه المؤمنين: ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً، قال له موسى هل إتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً، قال إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خيرا﴾ [الكهف 65، 66، 67، 68] .

وها هو ذو القرنين يوظف علمه في تحصين قوم من إحتياح يأجوج ومأجوج
قال تعالى: ﴿ قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا، على أن تجعل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً، أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال أنفخوا حتى إذا جعله نارا قال اتوني أفرغ عليه قطراً، فما سطاخوا أن يظهره وما استطاعوا له نقبا﴾ [الكهف 90، 91، 92، 93].

ويعلم الله داوود عليه السلام صناعة الدروع لتكون واقية للمحاربين، قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾ [الأنبياء 80]. ويحث القرآن الإنسان على تنمية مواهبه العقلية في التفكير والتدبير يقول العقاد: "فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ولا يذكر العقل عرضا مقتضيا، بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان"¹.

ولا يفصل القرآن تلك الوظائف العقلية ويجزئها في مجالات متباعدة، بل يؤلف بينها في انسجام، كما يؤلف بين الإيمان والعلم في الانطلاقة الحضارية فليس هناك علم بالحواس في دائرة انفصال عن علم مستنبط بالعقل، وليس هناك فجوة بين

1- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة اسلامية، بيروت، دار الكتاب العلمي، ط 2، 197، ص. 9

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوبة

تحصيل العلم بالبرهان العقلي، وبين تحصيله بالحدس الباطني، ولا يغلب علم نظري على علم عملي، بل العلاقة تكاملية وليست تقابلية، حتى إن الحدس الوجداني يندمج في النظر البرهاني، ومن أدق الدلالات على ذلك إسناد التعقل والتدبر إلى القلب في كثير من المواضع، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق 37]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد 24]، وقال تعالى: ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة 87]، ونهى القرآن عن التخمين منهاجاً في إصدار الأحكام وتحقيق النتائج مع إعتداد بوسائل تحصيل العلم حسية وعقلية قال تعالى: ﴿وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء 36]

وشدد على نبذ الوهم والهوى في تحصيل العلم المحرك لإرادة الإنسان نحو الهدى والبناء، فقال تعالى مصوراً المبتلين بالهوى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان 43، 44] وقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ

ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [النجم 23] ويدعو القرآن إلى حماية هيكل الحضارة بالإيمان والحكمة التي هي زبدة العلم، وثمرته ويصور لنا ذلك في مشاهد قصصية تاريخية، إستدلالات من حياة المؤثرين في الحضارات الإنسانية بالهدى والحكمة، يقول تعالى في شأن داوود عليه السلام: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة الآية 251]، ويقول على لسان يوسف

الذي حصن حضارة مصر في عهده بالأمانة والعلم: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف 55]، أما إذا كان العلم ضاراً خارجاً عن مقصود الحكمة، فإنه يقوض الحضارات ويبعد الأمم، إذا كان علماً مادياً صرفاً لا روح فيه من حق ولا إيمان، قال تعالى: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [غافر 82، 83] والعلم إذا لم يكن موصولاً بالإيمان كان عاجزاً عن تأمين المسيرة الحضارية للإنسان، قال تعالى: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [الروم 7] ومن غفل عن الآخرة لم يحتسب من العقوبات المدمرة في الدنيا قال تعالى: ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ [النجم 30]، وهلك أقوام لأنهم تركوا الهدى والعلم وتمسكوا بأعراف موروثه فاسدة، وقص لنا القرآن ذلك ليحذرنا مما وقعوا فيه، قال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان أبائهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [المائدة 104]

وتنتشر هذه الظاهرة عند الأمم المترفة عندما تتضخم فيها الحضارة المادية ويضعف فيه الوازع الروحي المحافظ على حياة كل حضارة، يقول تعالى في كون ذلك من سنته الاجتماعية: ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإن على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا

القرآن والمدد ----- أ. صالح دويبة

وجدنا أباؤنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أو لو جئتمكم بأهدى مما
وجدتم عليه أباؤكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴿ [الزخرف 22، 23، 24].
فالحركة العلمية المستبصرة بالإيمان تدفع الأمة إلى غايات الرقي الروحي
والمادي دفعاً قوياً في طريق ممهّد بالعمل الصالح موصول إلى خير الإنسان .

ج- المدد العملي :

ليس العمل في المفهوم القرآني محض الجهد المبذول مهما تضاءل، بل إنه
السعي إلى الأصلاح من المقاصد، وإن لم يكن متحقق الحصول، في توافق مع الوظيفة
المزدوجة للإنسان وهي تعمير الأرض، وتنفيذ أحكام الله، وبذلك يكون المسلم
أحرص الناس على استثمار الجهد والوقت، على خلاف ما يرى من أحوال المسلمين
اليوم، يقول ملك مالك ابن نبي: "إننا نرى في حياتنا اليومية جانباً كبيراً من

اللافاعلية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث والمحاولات
الهازلة، الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة"¹ .

ولم يكن ذلك شأن الناهضين في فجر الإسلام، بل كانوا يوائمون بين العلم
والعمل ولا يخلدون إلى التفكير المجرد، ولا إلى العمل غير المرشد، بل يفعلون العلم
بالعلم قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "كان الرجل إذا تعلم عشر آيات لم
يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"² .

1- شروط النهضة: ص 146، 147

2- تفسير الطبري

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوبة

وقال عبد الرحمن السلمي وهو من التابعين: "حدثنا الذين كانوا يقرؤنا أنهم كانوا يستقرئون عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذ تعلموا عشر آيات لم يخالفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً"¹.

وصار من المعارف عليه في الأوساط العلمية الإسلامية أن المتزود بالعلم لا يوصف بأنه عالم حتى يكون عاملاً بعلمه، فالعلم مبدأ العمل، والعمل تمام العلم. وذلك من مدد القرآن الذي تفردت خصائص مفاهيمه بما يحقق كمال الإنسان الروحي والعلمي، حيث قرن العلم بالخشية والهداية، والرشد، وذكر العلماء في سياق العبادة والعمل، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر 28]. والخشية من أعمال القلوب، كما أن العلم من نتاج العقول، وقال تعالى: ﴿ أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر 9]، وحسب القرآن حثاً على العمل بمفهومه الشامل أن قرنه بالإيمان في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأُخِبَتُوا إِلَىٰ رَيْبِهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [هود 23]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾... [ص 24]، وقال تعالى: ﴿ إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم 96]، وخص القرآن العمل بوصف الصلاح حتى يكون وسيلة إلى البناء النافع في الدنيا، والأجر الخالص في الآخرة، وفي الجمع بين المخصوص والصفة " العمل الصالح " ومزاوجة بين القيمة والواقع يقول سميت: "إن الخاصة المميزة للإسلام

القرآن والمدد ----- أ. صالح دبوبة

لا تقوم على الأمثلة العليا التي يرفعها أمام أتباعه بمقدار قيامه على الوسائل العلمية التي يرشد بها المسلم إلى إدراك تلك الأمثلة العليا"¹.

ولقد صرح القرآن الكريم بتسخير الطبيعة للإنسان فيوظف عناصرها الحية والجمادة بعقله وجهده قال تعالى: ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ [الجاثية 13]، وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النمل 5، 6]، ثم قوله تعالى: ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [النحل 8]، وقال تعالى: ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ضعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم ﴾ [النحل 80، 81]

وقال تعالى: ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ [الحج 65] وذلك التسخير يقتضي حركة دائبة في الحياة، مسددة بالعلم الرشيد والإيمان العميق، والمؤمنون عندما استجابوا لأمر الله كانوا يبذلون أقصى الجهد في الطاعة والجهاد والبناء للحياة، ففتحوا الممالك وعمروها بالإيمان والعمل والعلم فتمكنوا في الأرض بخضارة تجمع بين إشباع حاجة الروح وحاجة البدن على السواء وتحقق وعد الله فيهم حيث قال تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

1- نقلا عن كتاب الإسلام دعوة عالمية للعقاد - بيروت - دار الكتاب اللبناني - المجموعة الكاملة -

القرآن والمدد ----- أ. صالح دهبوبة

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴿النور 55﴾، فإذا أردنا النهوض من كبوتنا الحضارية، فلنستمد من القرآن ما يدفعنا إلى استباق ما فاتنا في تبصر علمي وتسليح عملي، وكما يقول ابن نبي: " يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى " وتاريخنا يسد بالسلام لا بالغرب، وترابنا يجب أن يزرع بالخير لا بالشر ووقتنا يجب أن يشغل بالعمل لا باللهو، ومواهبنا يجب أن تصقل بالعلم لا بالوهم، وأهدافنا يجب ألا تحيد عن الحق، ولا يحتمل فكرنا تصوراً نتخيله، بل منهجاً نتمثله.